مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جوانب من جهود التعليم للعلاَمة ابن باديس في الجزائر الغايات والمكاسب

د. معيوش براهيم

دكتوراه العلوم من جامعة الجزائر (٢)

أستاذ بجامعة سطيف (٢)

الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

ما من شك أنّ التعليم ركيزةٌ أساسيةٌ من الركائز التي تقوم عليها المجتمعات، لذلك بعد الهجمة الفرنسية التي تعرضت لها الجزائر أولى الفرنسيون اهتمامًا بالغًا به وتبنوا استراتيجيات كثيرة لإعادة بناء المنظومة التعليمية بالشكل الذي يخدم مشروعهم الاستعماري، لكنهم كانوا بين الفينة والأخرى يصطدمون بعلماء مقتدرون تجَذر فيهم حب العلم ورفع صروحه على غرار العلاَمة عبد الحميد بن باديس الذي كان له نشاطٌ تعليميٌ استطاع من خلاله أن يُحقق في تلك الظروف الحالكة مكاسب أثرت بشكل عميق في مشروع بعث الجزائر من جديد وهي الحقيقة التي لا يُنكرها إلا أصحاب الفكر المُتزمّت، ويروج عكسها بعض الباحثين الذين لا يستطيعون الكتابة عن الموضوع خارج دائرة الأيديولوجيا، وانطلاقًا من فكرة أنّ الكتابة في التاريخ ليست جازمة عُدنا للموضوع لمناقشته من غير طابوهات وذلك بالاعتماد على نهج فكري خال من المسكوت عنه والمحجوب بالمغالطات، ذلك لأنه كثيرًا ما يجد القُراء أنفسهم في غمرة النقاش الدائر حول الهوية والذاكرة الجماعية للجزائر ممزقين بشكل عام بين ولائين فكريين إثنين أحدهما منتصر للمشروع الإصلاحي لهذا العلامة والذي يُعَدّ التعليم أحد ركائزه الأساسية لأنّه وسيلة لتجديد الفكر والثقافة والآخر رافض له من منطلق أنّه مشروع يقوم على فكر رجعي يمنع معاصرة ما يستجديه الزمن من تغيرات في مظاهر الحياة المختلفة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٩	فبراير	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	١٨	مارس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

التعليم؛ ابن باديس؛ إصلاح التعليم؛ التعليم في الجزائر؛ الاحتلال الفرنسي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2021.231391 DOI

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

معيوش براهيم، "جوانب من جهود التعليم للعلامة ابن باديس في الجزائر: الغايات والمكاسب".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١٠٧ – ١١٥.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: mayouchebrahim@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

مباشرة بعد المُداهمة الفرنسية التي شهدتها الجزائر وضعت السلطات الاستعمارية يدها على كل المؤسسات التي كانت تعني بالتربية والتعليم وحوّلت الكثير منها إلى كنائس ومقرّات إدارية وحتى إلى ثكنات للعسكر، الشيء الذي جعل الأمر في الجزائر يصل إلى الاحتقان جرّاء هذه السياسة التعسُفية التي كان لها تأثير يفوق كل تصور حيث وصل الحد بها إلى تفشي الأمية بشكل يكاد يكون مُطلقًا بعد أن كانت الجزائر إلى عهد قريب قبل الاحتلال قبلة للعلم والعلماء، وأمام هذا الوضع المتردي لم يعُد مقبولا تواطُل صمت النُخبة القادرة على إحداث التغيير وأصبح لزامًا على علماء الجزائر العمل على تحريك مواطن الفاعلية في العقول الجزائرية المسترخية من خلال نشر التعليم على أوسع نطاق، وبالفعل مع مطلع القرن العشرين ظهر للوجود ثلة من زينة علماء الجزائر بدت عليهم بوادر النُضج الفكري المُبّشر بالآفاق الجديدة فاختاروا سلاح الفكر والعلم لإذكاء وعي الجزائريين وتحرريهم مما يعوق نهوضهم، ولعل من أبرزهم رائد الإصلاح والتجديد بالجزائر عبد الحميد بن باديس الذي حمل على عاتقه مسئولية نشر التعليم بين أبناء الشعب الجزائري وإفشال مشاريع تهديم التعليم العربي بمشاريع مناهضة لها تمنعهم من الانسلاخ والذوبان في الكيان الفرنسي. ومع أنَ خدَام الإدارة الاستعمارية ضيَقوا على نشاطاته إلا أنَه استطاع أن يُحقق مع من تحلَق حوله من علماء الإصلاح نتائج معتبرة لا يُمكن التعامي عنها ولا تجاهلها الشاهد تلك الكتاتيب والمدارس الحرة التي تعد بالمئات تمَ تأسيسها رغم قلّة الإمكانيات لنشر التعليم بين أبناء الشعب لا فرق فيها بين ذكر وأنثى ولا بين مدينة وبادية وهو ما سنتطرق إليه في هذا المقال، لكن إتماما للفائدة رأينا أن نتحدث في نبذة مختصرة عن هذا المصلح الثائر، ثم نستعرض حال التعليم في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي. لننتقل بعده إلى ذكر الجهود الفياضة التي حاول من خلالها النهوض بالشعب وبتربيته وعلمه وكذلك الرفع من مستواه الذهني والفكري والحضاري.

أولاً: نبذة مختصرة عن حياة ابن باديس

هو الشيخ المجدد المصلح عبد الحميد بن محمد بن المصطفى بن مكي بن باديس أحد أعلام الجزائر ورائد من رواد نهضتها الإسلامية الحديثة ينتمي إلى عائلة عريقة في العلم والنسب والجاه ولد بمدينة قسنطينة عام ١٨٨٩م، وفيها بدأ رحلته في طلب العلم حيث تعلم على يد الشيخ حمدان الونيسي. اللغة العربية ومبادئ الشريعة الإسلامية ولكونه أجاد حفظ القرآن الكريم قُدَم ليُصلى بالناس إمامًا على صغر سنه[1]، وبغية استكمال مشواره الدراسي توَجه إلى جامع الزيتونة بتونس مكث فيه أربعة سنين وكانت النتيجة أن حقق نجاحًا باهرًا حيث نال شهادة التّطويع العالمية وحاز على الدّرجة الأولى متفوّقًا على جميع النّاجحين آنذاك[2]، وبعد عودته إلى الجزائر اهتم بتقديم دروس الوعظ الديني والإرشاد على مستوى الجامع الكبير المتواجد بمسقط رأسه مدينة قسنطينة لمدة قصيرة من الزمن ثم عاوده الحنين إلى طلب العلم والحاجة إلى التواصل مع العلماء المقتنعين بالتيار الإصلاحي فسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وهناك التقى من جديد بأستاذه حمدان الونيسي الذي كان له أثر طيب في اتجاهه الديني والإصلاحي حيث أوصاه أن يطلب العلم للعلم لا للوظيفة وأخذ منه عهدا بألا يقبل الوظائف الحكومية إنْ عرضتها عليه فرنسا وهي الوصية التي عمل بها حيث رفض كل مساومات الإدارة الاستعمارية لإدخاله في صفها.

اهتم بن باديس بتأليف الرجال بدل تأليف الكتب وأولى عناية فائقة بالتربية والتعليم في أوساط الأطفال والشباب مستغلا في ذلك كل الوسائل المتاحة من الكتاتيب والمدارس والنوادي الإصلاحية والمساجد، لذلك لم يكن إنتاجه العلمي غزيرًا وكل ما وصلنا تمَ جمعه من مقالات الجرائد التي استصدرها تحت لواء جمعية العلماء المسلمين التي كان رئيسًا لها وغيرها من دروس التفسير والحديث[3]، وقد استطاع من خلال نشاطه الفياض في التربية والتعليم أن يُبلور الفكر الإصلاحي ميدانيا ويطبَق مناهجه التربوية عمليا وأنْ يُخرَج للجزائر جيلاً جديدًا من رجال التعليم ورموز الفكر والأدب، وهو اللب المثمر لسنوات طوال كان فيها صامدا و أفنى فيها وقته وصحته ووصل ليله بنهاره لبعث الجزائر من جديد ولنهضتها التي كانت أسمى غاياتها تخليص البلاد والعباد من تسلَط الاستعمار الفرنسي انتهت بإصابته بمرض كان السبب في أن يُسلم روحه الطاهرة إلى بارئها في ١٦أفريل ١٩٤٠م فخرجت قسنطينة كلَها تودعه في جنازة مهيبة ليُدفن في مقبرة آل باديس.

ثانيًا: حال التعليم في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي

انشغل رجال الاحتلال في الأشهر الأولى بفرض سياسة الحديد والنّار بغية فرض السيطرة على كل أنحاء القطر الجزائري بتوزيع ترسانتهم الحربية لإرساء قواعد الاستعمار، ليتفرّغوا بعد ذلك إلى استراتيجيات تُمكّنهم من إدماج وفرنسة الأهالي الذي

سوف لن يكون إلا بحصار النّظام التعليمي السائد آنذاك أو استبداله بالمدرسة الفرنسية تكون مهُمتها بالدرجة الأولي تربية نشء ناكر لذاته وحامل لمبادئ وقيّم مغايرة للتي كان عليها المجتمع وفعلاً لم تمض مدة طويلة حتى أصدرت سلطات الاحتلال أوامر يتّم بمقتضاها الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية التي تُموّل الخدمات الدينية والثقافية والتعليمية والاجتماعية وفكرت في أنْ تحرم الجزائريين من كل روافد العلم والتثقيف فلجأت إلى المدارس والمؤسسات الناشرة للتعليم العربي التي خُرّبت وهُدّمت وحُوّل البعض منها إلى كنائس ومؤسسات إدارية ومهنية بل وحتى إلي إسطبلات لتربية الخنازير والحمير والخيول[٤]، وقد أقّر بهذا الاستخراب الثقافي أحد الضباط الساميين الفرنسيين وهو الجنرال "de lamorciere" الذي صرّح قائلاً: "حللنا بمدينة الجزائر فاتخذنا من المدارس مخازن وثكنات واصطبلات واستحوذنا على أملاكها وكنا نظن أنّنا سنُعّلم الشعب العربي (الجزائري) مبادئ ثورتنا ولكن مع الأسف رأوا في ذلك ضربة للدين والعقيدة"[٥]، كما أنّها أغلقت نحوا من ألف مدرسة يدرس فيها مائة وخمسون ألف طالب أو يزيدون[٦] مباشرةً بعد الأشهر الأولى للاحتلال بالإضافة إلي استيلائهم على ما كانت تحويه كل تلك المؤسسات التثقيفية مُمثلة في المساجد والزوايا والمدارس من أمات الكتب القيّمة والمخطوطات الثمينة وأحرقوا منها الكثير وجمعوا البعض الأخر ليُباع للمُستشرقين والمُنشغلين بدراسة الوثائق والمخطُوطات وهو الشيء الذي يُفسّر وجُود كثير من المخطوطات والوثائق التي تُعبّر عن التراث الثقافي الجزائري في المكتبات والمتاحف الفرنسية.

وقد أبقت فرنسا على هذه الاستراتيجية حتى بعد مُرور عشرات السنين بل أكثر من هذا طالب البعض من مُنظري الاستعمار الاستزادة من تجهيل الشعب فهذا أحدهم يرفع تقريرا في أوائل الستينات إلى نابليون الثالث يقول فيه: "لنُعرقل قدر الإمكان تطّور الزوايا والمدارس وبكلمة واحدة يجب أنْ نعمل علي إحباط الأهالي ثقافيًا وماديًا"[٧] وبالفعل استجابت الإدارة لمثل هؤلاء المُتعصبين فراحت تعمل بكل ما أُتيح لها من وسيلة لتشديد الخناق على المدارس ومراكز الإشعاع العلمية، ما أسفر عن انتشار فضيع للأميّة في الأوساط الشعبية قاربت نسبتها النّسبة المُطلقة إذ أصبح الكثير من أفراد المجتمع صغارا وكبارا ذُكرانا وإناثا فريسة لهذه الآفة المُهلكة باستثناء قلّة قليلة ممن يحفظ القرآن والأحاديث والمُتون بعد أنْ كان معظمهم مُتعلمين ومُلّمين بالمعارف بدرجة أكبر من الفرنسيين باعتراف البعض منهم على غرار عضو مجلس الشيوخ (أوجان كومب) الذي قال:" لا شك في أنّ التعليم بالجزائر كان قبل الغزو أكثر انتشارا وأحسن حالا مما هو عليه الآن فقد كان هناك أكثر من ألفي مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية يتولي التدريس بها نُخبة من الأساتذة الأكفاء وكان الطلاب من الشبان مُتعطشين للعلم هذا فضلا عن مئات المساجد التي تُعلّم اللغة العربية[٨].

ظلّ للتعليم مُتدهورًا طوال مدة الاستعمار إذ بقيت مؤسسات التعليم شبه غائبة في كثير من المناطق كما أنّ الأطفال الذين كانوا في سّن الدراسة ولم يلتحقوا بها ولم يتلقوا فيها ولو تعليما ابتدائيا مثلوا أغلبية ساحقة ففي سنة ١٩٣٠م مثلاً أي بعد مرور قرن من الوجود الفرنسي. بالجزائر كانت نسبة الأطفال الذين لم تكن لهم أماكن في المدارس92% بينما مثّلت نسبة أقل من20% في بداية الأربعينيات عدد الأطفال الذين وجدوا مكانا في المدارس الفرنسية[٩] وفي الخمسينيات كان عدد الطلبة من أبناء الشعب قليل أيضًا بالمقارنة مع التلاميذ الأوروبيين الذين كان عددهم في مدارس الجزائر٩٧٤٠٠ تلميذ بينما لا يتجاوز عدد التلاميذ المسلمين ٨٢٨٦٤ تلميذ على الرغم من أنّ نسبة التلاميذ الأوربيين إلي التلاميذ الجزائريين ٤% فقط وهذا الفرق يرتفع في المدارس الثانوية لخمسمئة ضعف أي ١٥٦ تلميذ أوروبي مقابل مُسلم واحد والباقي لا يحّقُ لهم الدخول في هذا النّوع من المدارس.[١٠]

أما التعليم العالي الذي كانت تُمثله مؤسسة واحدة فقط وهي جامعة الجزائر فلم يكن من نصيب أبناء الشعب إلا قلّة قليلة من صفوة المُتعلمين مُمثلة في ثُلّة من الأطباء وبعض المُحامين وبضعة من الأساتذة ما يجعل بالإمكان تسجيل أنّ الالتحاق بالمدرسة مُشكلة ظلّت مطروحة دائمًا كون أنَ أعداد المُتمدرسين لم يتزايد إذا راعينا تزايد التعداد السكاني للجزائريين وبقيت بعيدة عن المستوى المطلوب ليس فقط لأنّ الأهالي رفضوا التعليم وإنما لرفض الغُلاّة والمُتعصبين الأوروبيين الرافضين لكل تعليم سواء كان عربيًا أم فرنسيًا خوفًا من انتشار اليّقظة بين أفراد الشعب وبالتالي إعاقة انتشارهم في كامل ربوع الوطن، فسعوا إلى مطالبة السلطات بمنع الأهالي من التعليم مهما كانت صفته وهذا ما حدث فعلاً وأسطع دليل على ذلك ما ذكره الطبيب المارتيني (فرانز فانون) الذي سمع بنفسه كما يقول مرة مديرة مدرسة تشتكي من أنّها مُجبرة في كل سنة على قُبول بعض الأطفال الجزائريين في مدرستها[١١] وكأنّها بذلك تُريد أنْ يبقي هؤلاء

الأطفال مُستعبدين ليس عليهم سوى حمل مُشتريات الأوروبيين ومسح أحذيتهم كما كان شائعا حينذاك، وكذلك ما صرّح به السيد (فرحات عباس)أحد الفاعلين والناشطين في الحركة والوطنية والذين تكّونوا بالفرنسية وعايشوا أحداث هذه الفترة الصعبة من تاريخ الجزائر حيث قال: "لمّا كُنّا نُطالبُ الفرنسيين بفتح المدارس كان جوابهم أنّنا لسنا أهلا لها لأنّنا لا نقبل التربية ولا التعليم فأوصدوا في وجوهنا أبواب المدارس العُليا ومدارس العلوم التقنية ثُم يتهموننا بعد ذلك بأنّه ليس لنا قابلية ولا كفاءة[١٢]، وبعد أن منعت سُلطات الاحتلال التعليم في الجزائر شددّت الخناق على طلبة العلم ومنعتهم حتى من مُغادرة البلاد لتلقي العلوم في البلدان الأخرى فقد نصّب الاستعمار جدارًا حديديًا ليحول بين الجزائريين وبين العربية من جهة كما حال بينهم وبين تلقي العلم في البلدان الأخرى من جهة ثانية.[١٣]

ثالثًا: جهود ابن باديس في إصلاح التعليم بالجزائر

أمام الحالة المُتدهورة للتعليم في الجزائر وبمُضاعفة فرنسا لمضايقاتها على تعليم أبناء الشعب الجزائري وجعله حكرًا على أبناء المُعمرين وبعض من خُدّام الإدارة، استيقظ بعض العلماء واقتنعوا بضرورة العناية به وتوجيه الجُهود لتكوين أجيال جديدة مطبوعة بالطابع الإصلاحي علمًا وعملاً على غرار عبد الحميد بن باديس الذي اشتغل بالتدريس مباشرة مع عودته من تونس حيث كان التعليم شُغله الشّاغل وهو الذي أخذ قسطًا كبيرًا من نشاطه الإصلاحي حتى قرَّر حقيقة علمية جريئة تبوئه مكانة خاصةً بين علماء الأمة قاطبة، وهي كلماته الخالدة التي قال فيها أنَ العلم وحده هو الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات، والحال نفسها مع رفيق دربه الشيخ الإبراهيمي الذي درّس وكوّن الكثير من الطلبة في سطيف وضواحيها وكذلك الشيخ الطيب العقبى الذي انصّب اهتمامه بنشر التعليم في مدينة بسكرة وغيرهم كثيرون من العلماء والطلبة الأكفاء الذين تكوّنوا في معاهد وجوامع الدول الشقيقة وبعض من شيوخ الزوايا الذين التزموا بمسؤولياتهم التربوية والأخلاقية والوطنية، وقد كان طلبة العلم في الجزائر يحظّون بمكانة مرموقة واحترام الجميع، ولكن ميزة التعليم الذي كان سائدًا هي المحدودية إذْ لم يستطع القائمون عليه توجيهه التوجيه الأمثل نظرا لأنّ جهودهم كانت فردية ولا تكفي لأن يكون تأثيرها عميقًا أو لتتوسع دائرته، زيادة على أنَه بقي في صوره البدائية التي لا تتعدي في غالب الأحيان الجلوس على الحصير والقراءة الجماعية بما فيها من ضوضاء وجلبة ومحدّودية مواده التي تقتصر على تحفيظ القرءان والمُتون والنّحو، الشيء الذي حال دون وصول أغلبية أبناء الشعب آنذاك إلي المستويات العليا من العلم والدرجات الكبرى من النُّضج والوعي.

ولعل أوّل رجل فكّر في مُقاومة الأمية بصورة جدية في الجزائر هو بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين[١٤]، الذي رأى أنّ الحلّ يكمن في استجماع الجهود وتوحيدها في أواخر العشرينيات من القرن الماضي وقد شهد بذلك (محمد خير الدين) الذي ذكر أنّه قال مرة لجُلسائه والمنتصرين للتيّار الإصلاحي :"إني عقدت العزم على توجيه دعوة إلى أبناء الجزائر المتخرجين من جامع الزيتونة وكذلك العائدين من المشرق العربي لكي ندرس جميعا الحالة الراهنة ونتعاون على وضع خُطّة لإنقاذ هذا الشعب قبل فوات الأوان"[١٥]، وبالفعل بعد ظهور الجمعية التي أخذ التفكير في تأسيسها سنوات من النقاش وبمناسبة تعيين ابن باديس رئيسا لها قال كلاما يُستنبط منه أهداف وغايات هذه الهيئة التي جمعت بين علماء الجزائر ومن أهمّها نشر العلم ورفع غشاء الجهل عن أعين أبناء الشعب حيث صّرح بما يلي: "إنني قصّرت وقتي على التعليم فلا شُغل لي سواه فأردتم أن ترمزوا بانتخابي إلى تكريم التعليم و إظهارا لمقصد عظيم من مقاصد الجمعية وحثّا لجميع الأعضاء على العناية به كلٌ بجُهده"[١٦]، مع العلم أنّ العبء أصبح ثقيلا والمجهُود قد لا يكون كفيلا ما دام الجميع من دُون استثناء كانوا بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويُخرجهم من الجهل إلى نور العلم النافع.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات التي لم تكن تخفي على العلاّمة بن باديس ومن تحلّق حوله من العلماء آنذاك إلا أنّهم تعّهدوا أبناء الشعب الجزائري على الالتفاف حوله والعمل بكل السُبل في سبيل تربية النشء الصاعد التربية اللائقة، وفي هذا الصدد يقول الشيخ الإبراهيمي:" في تحقيق الغاية السليمة نجتهد ونكدح وللوصول إليها نعمل وفي العمل لها نلقي الأذى، وفي الأذى نلقي راحة الضمير والاطمئنان النفسي. وببلوغهما نكون قد أدينا الأمانة"[١٧]، والبداية كانت مع تأسيس المدارس الحُرة التي تفسح المجال لتحقيق الأهداف المنشُودة فهي مبعث الحياة وهي أوّل ما يجب الاهتمام به والسعي لتحقيقه وكل من يُعارض تأسيسها إنما يعارض في حياة الأمة ونهضتها كونها تُساعد الأجيال الناشئة على النمو السوّي المتكامل عقليا وروحيا، ولقد كانت أولى التدابير التي بدأ بن باديس والفريق

العامل معه جهودهم في إصلاح التعليم الشروع العاجل والمُباشر في تعليم الصّغار بالاستعانة وتجنيد المئات من التلاميذ المُتخرجين على أيدي رجال الإصلاح ودعوة الشباب من الطلبة الزيتونيين إلى العمل لتعليم أبناء الشعب اعتبارا من أنّ الكتاتيب والمدارس التي تقدم تعليما ابتدائيا لها قيمة بالغة لأنّها توّفر أكبر فرصة للتأثير على الصغار ما دامت عُقولهم صفحات بيضاء تقبل بأن يُشّكل فيها كثير من الأمور المتعلقة بالأخلاق والسلوك والوجدان وحب الانتماء، الشيء الذي يجعل منهم قوة تقف أمام مخططات الاستعمار التغريبية وسلاّحا في رحى المعركة الهادفة إلى تغذية العقول الجزائرية المُسترخية بما هو مُستّمدٌ من توّجه الشعب الجزائري الحضاري الذي لا يتنافي مع ثوابته ومقوّماته.

كان العلاّمة بن باديس منذ بداية نشاطه على يقين أنّ ما يرسو من حل سليم لمعالجة فعلية للوضع التعليمي المأزوم في الجزائر هو العمل بنفس الأداة ببناء مدارس تعمل في الاتجاه المعاكس وتكون مناهجها منافية لما تروّجه المدرسة الفرنسية، فالمدرستين مختلفتين تماما ووجه التعارض بينهما يكمن أساسا في أنّ القائمين على المدارس الحرة التابعة للجمعية جمعوا بين الدين والعلم بينما تفصل بينهما المدرسة الفرنسية وتُخصص للدين مؤسسات خاصة لأنّها تعتبره معرقلاً لمسيرة التطور والنماء ثُم انّه لما كانت الإدارة الاستعمارية تُصوّر في مقررات مدارسها أنّ الأمة الجزائرية لا تاريخ ولا وجود لها وتُلّقن الطلبة من أبناء الشعب في حصص التاريخ أنّ بلادهم كانت تُسمي الغال وأجدادهم يُسمّون الغاليون[١٨] كمحاولة منها لقتل الرُّوح الوطنية فيهم وتحضيرهم لنُكران انتمائهم القومي عمل القائمون على المدارس الحرة على تصفية أذهان الطلبة الجزائريين من هذه الأفكار الهدّامة بدحضها وتعليمهم طريقة التمحيص حتى لو كان يتكبد فيها الطالب عناء الدرس وطول الاستذكار، وقد اهتم ابن باديس نفسه بتدريس علم التاريخ لتلامذته حيث كان يُرّكز في دروسه على محاضرات التاريخ العربي والنهضة الإسلامية الحديثة ومن أهّم الكتب المقرّرة في دروسه آنذاك سيرة ابن هشام ومقدمة ابن خلدون والعروة الوثقى للإمامين جمال الدين ومحمد عبده وكذلك تاريخ العرب لغوستاف لوبون وكان يختار لتقديم مثل هذه الدروس وقتًا تغفل عنه أعين الإدارة وهو وقت ما بعد صلاة الصبح.

زيادة على الذي ذكرناه وبحكم أنَ بن باديس كان ينبذ التعليم التقليدي المحصُور في حُدود ضيّقة ويتطلّعُ دومًا إلى التجديد كفكرة تمشي في أوصاله عمل على إصلاح أساليب التعليم وطرائق التدريس حتى تتضمن مناهج تربوية أساسها تلقين تربية إسلامية منظمة ومبادئ أولية للمعارف العلمية حيث بواسطة هذه الأساليب الجديدة يتمكن التلاميذ من معرفة حقائق الإسلام وبفضل دروس المُحادثة واللغة والمطالعة والقواعد العربية ثم التحرير والإنشاء يتعلمون التخاطب السليم، وقد كان يهدف بنشاطه البيداغوجي هذا إلى إعطاء الثقافة الجزائرية محتوى إيجابيًا وإلى تحسيس أبناء الجزائريين بخصوصيتهم الثقافية، وبالإضافة إلى تشييد المدارس شجّع إنشاء الأفواج الكشفية وقد ترّأس بنفسه أول مؤتمر عقدته الأفواج الكشفية الجزائرية بالعاصمة بعد توحيدها عام ١٩٣٩م وقد كان الشعار الذي رفعه المؤتمر نفس شعار الجمعية (الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا).[١٩]

وهناك نقطة أخرى أساسية يتوجب الإشارة إليها تتمثل في تعليم الإناث اللائي غلبت عليهن الأمية المطبقة لرفض أبائهن تعليمهن لأعذار سخيفة تتعلق في مُجملها برفض الاختلاط و المُزاحمة بين الذكور والإناث وكذلك أولوية أنْ يكون القائمين على شؤون تعليم البنات نسوة مُتعلّمات لا طُلاّب شباب يُمكن أن يكونوا مصدر قلق لهم و قد ذكر في شأن ما قارفه بعض الآباء في حقّ بناتهم من تجهيل أحد المصلحين المنتصرين للمدرسة البادسية وهو الأستاذ (علي مغربي) أنّ ابن باديس في إحدى المرات التقى مع أرباب أُسر جزائرية بنادي الترقي وفاتحهم موضوع تعليم بناتهم و الدواعي التي دعتهم إلى منعهن من التعليم والتثقيف فما كان من احد الحاضرين إلا أن أسمع الشيخ ما لا يرضيه وقال أن الآباء لا يثقون فيمن يُعلّم بناتهم و هنا انتفض الشيخ عبد الحميد و قال بصوت عال إذا لم تكن الثّقة فينا ففي من تكون.[٢٠]

وقد التزم بعد ذلك بالدعوة إلى تعليم الفتيات وعدَ ذلك من موجبات الشرع الملزم لطلب العلم والترغيب فيه من دون تمييز بين الذكور والإناث ولمُعالجة هذا الإشكال المُتمثّل في عُزوف البنات عن التعليم بالمدارس الحرة اعتمد أسلوبًا جديدًا لاستقطاب أكبر عدد مُمكن منهن ولتشجيع أهاليهن على إرسالهن لينهلن من العلم ولو القدر اليسير، وهو ردٌ كاف للآباء على ذرائعهم يتمثل هذا الأسلوب في فصل صُفوف الإناث وحصر التعليم في أقسام خاصة بالبنت حتى لا يتحرج الآباء ولا المعلمين وحتى لا تُسجّل أيّة تجاوزات قد تضُّر بسير المشروع التعليمي وتكون النتيجة عكس ما يُرجى منه، كما أنه ميّز الفتيات بميزة أخرى وهي أنّهن يتعلّمن من دون دفع اشتراكات،

فقد كان البنين لا يدفع منهم واجب التعليم إلا القادرون، وأما البنات يتعلّمن كُلّهن مجانا لتتكوّن منهن المرأة المسلمة[٢١] وهذا درءًا لما يتحجج به الآباء من عدم المقدرة على دفع تكاليف الدراسة وقد كانت ثمرة هذه الاستراتيجية طيبة إذ بعد سنوات قليلة فقط ذابت العقلية المُتحجّرة للآباء الرافضين لتعليم الإناث بعدما أيقنوا أن العاملين بتلك المدارس إنما هم علماء وطلبة أكّفاء من أبناء هذا الشعب وبعد أنْ ازداد عددهن وأصبحن يصررن على متابعة الدروس ومسار تعليمهن وصل الأمر بابن باديس إلى مراسلة إحدى حفيدات الأمير عبد القادر التي كانت لها مدرسة في دمشق طالبا منها القُبول بانتقال بعثة طُلابية إليها تتكوّن من طالبات جزائريات تمّ اختيارهن من مدارس الجمعية ليستكملن الدراسة فيها بعيدًا عن ضغوطات الإدارة الاستعمارية ولكن نظرا للظروف التي لم تكن مواتية تعطّل المشروع.

كان التعليم العالي كذلك محّل اهتمام الشيخ بن باديس إذ بعد ازدياد أعداد الطلبة الذين يُريدون مُتابعة التعليم في الجوامع والمعاهد العليا التي تتوفر عليها الدول الشقيقة لتيّقنهم أنّ شعارات فرنسا في التّمدُن دعاية كاذبة توَلى العلامَة بن باديس بنفسه العمل على مشروع إرسال بعثات نحو الدول الشقيقة ليتمكن الطلبة الجزائريون من التثّقف بالثقافة العربية الإسلامية حيث كان يُرسل من وقت لأخر مجموعة من الطُلاّب إلي جامع الزيتونة، كما راسل شيخ الجامع الأزهر (مصطفي المراغي) سنة١٩٣٧م جاء في نص الرسالة رأي جديد في فهم الخلافة الإسلامية وهو أنّه إذا ما أرادت الأمة أن تحفظ وجودها وقوامها فإنّ الذي تعتمد عليه هو الخلافة العلمية التي تجمع بين أفراد الأمة وأقطارها ثم بيّن أنّ ذلك لن يتم إلا بتحقيق اتصال جامع الأزهر بالأمم الإسلامية من أقطار الأرض وبالبعثات العلمية تُرسل إليه، ولم تنقطع هذه البعثات إلا أحيانًا بسبب الظروف التي لم تكن تسمح بذلك لكنها استمرت وتنَظمت فكانت النتيجة أنْ وصل عدد الطلبة بالزيتونة في بعض السنين ألف وسبعمائة وفي جامع القرويين بمدينة فاس يصل في بعض السنين إلي المائتين ويزيد وفي المشرق العربي أصبح لها بعثات إلى مصر مرّكبة من أربعين طالبًا وفي العراق بعثة مرّكبة من إحدى عشر ولها في سوريا بعثة مرّكبة من عشرة طلاب.[٢٢]

وزيادة على كل الذي ذكرناه عمل الشيخ بن باديس مع العاملين تحت لواء جمعية العلماء على توسيع دائرة التعليم حيث لم يغفل حتى عن تعليم الكبار والشباب الذين عاشوا حياة وعرة السُّبل ورّثتهم أمية مُطبقة في زمن هم فيه بأمّس الحاجة إلى التعلّم والأخذ بأسبابه حيث لم تكن ظروفهم تسمح بذلك فبالنسبة للكبار أمر بتنظيم دروس لهم للوعظ والإرشاد الديني وإعداد حلقات علم على مستوى المساجد للتذكير على طريقة السلف يتم فيها التذكير بالكتاب والسُّنة وسيّر الصحابة وهديهم ثُم سيّر حملة الهدي المحمدي في أقوالهم وأفعالهم كذلك ونظرًا لتفشي آفة الأمية لدرجة لا يستطيعون فيها قراءة رسالة أو حتى كتابة أسطر باللغة العربية تكون صحيحة جعل أهَم ما يعمله لهم هو أن يتقدّم كلُ عُضو منها ليُؤخذ منه العهد على تعليم أمي أو أكثر من أقاربه الكتابة والقراءة والعمليات الأربع في الحساب ويُحفظّه سورًا من القرءان على صحتها[٢٣] ثُم بعد ذلك يتّم العمل وفق نفس الطريقة مع أفراد المجتمع الذين يجتمعون في حرفة معينة، إذ يلزم على كل طالب من طلاب المدارس الحرة تعليم أولئك القراءة والكتابة والحساب وبسائط عملياته ساعتين من اللّيل على أنْ يلتزموا هم بدفع مبلغ مُعيُن في كل شهر[٢٤] وبهذا يكون النّفع من جهتين.

والجدير بالذكر أنّ عمل بن باديس لم يكن مقتصرا فقط داخل الجزائر بل تعداه إلى البلد المُستعمر حيث فكّر في تنظيم دروس لأبناء العمال الجزائريين في غير أوقات دراساتهم بالمدارس الفرنسية لتلقينهم مبادئ القراءة ومبادئ الدين الإسلامي حتى يرتبط هؤلاء الأطفال منذ الصغر بالحضارة العربية الإسلامية وبوطنهم الجزائر، وكانت بداية النشاط سنة ١٩٣٦م أين طلب من (الفوضيل الورتيلاني) اللّحاق بالعمّال الجزائريين الذين اصطحبوا عائلاتهم للعيش معهم في فرنسا وقد تمكّن بعد فترة من فتح خمسة عشر ناديًا يتردد على كل واحد منها الآلاف من أبناء المسلمين يتلّقون الدروس ويسمعون المحاضرات ويُؤدون فروض العبادة ويُحيون تعاليم الإسلام، ليلحق بعد ذلك ثُلّة من العلماء المصلحين النّشطين مُمثلين في الشيخ السعيد الصالحي، الشيخ الصالح بن عتيق، الشيخ حمزة بوكوشة، الشيخ سعيد البيباني، الشيخ فرحات بن الدراجي، الشيخ محمد الهادي السنوسي، الشيخ محمد أو علي العربي، وقد توزّعوا كلهم على معظم المدن الفرنسية التي يكثُر بها المهاجرون الجزائريون ففتحوا العديد من الشُعّب في عدّة أحياء كباريس وليون ومارسيليا وليل لتحسيس الآباء بضرورة المشاركة في مُستقبل بلدهم الأم وفي النهضة المنشودة[٢٥]، وبطبيعة الحال لم تكن لتلك الجُهود أنْ تضيع سُدى فقد استطاع هؤلاء أنْ يكون لهم تأثير بارز حيث نجحوا في لمّ شمل

الجزائريين في فرنسا وفي إحياء الدين واللغة في كثير منهم حتى أصبحوا يدًا ممدُودة للعون تسهم في تمويل المشاريع الإصلاحية هناك من تأسيس النوادي وتشييد المدارس لتصون شخصيتهم الأصلية وتحول بينهم وبين ذوبانها في البوتقة الفرنسية.

رابعًا: مكاسب الجهود التربوية للعلاّمة بن باديس في الجزائر

لقد كان نشاط ابن باديس الإصلاحي من جانبه التربوي والتعليمي نشاطًا فيّاضًا مكّنه من وضع يديه على موطن الداء وشخصّه ألا وهو الجهل ثم وصف له الدواء على الرغم من تضييق السلطات الاستعمارية حينذاك على كل من يشتغل بالتعليم العربي خشية أن يُفتّقُوا أذهان أبناء الشعب ويتلقفوها لخدمة المشروع الإصلاحي الذي يُبيح للجزائر أمة وشعبا التقدُّم والنهوض، فقد سجَل تأثيرًا ملحوظًا كونه كان حريصًا على نشر العلم والعناية به عناية فائقة لاستيقانه أنّه وحده هو الذي يُثمر التجديد والإبداع، فالحقيقة أنّه على الرغم من الهُوّة والفوارق العجيبة في الإمكانيات المادية والبشرية وكذلك الحرية في ممارسة التعليم بين الإدارة الاستعمارية وبينه، إلا أنّه استطاع مع من انضووا تحت لواء جمعية العلماء التي كان رئيسًا لها حتى وافته المنَية في فترة وجيزة وقياسية أن يساعد أبناء الشعب الجزائري بقسط وافر في الخلاص من آفة الأمية التي تُفقد الإنسان مكانته وهيبته، فما حقّقه بنضاله في مجال التعليم لا يُمكن نكرانه أو غضّ الطرف عنه والجاحد لما استطاع أن يسم به المجتمع الجزائري من إصلاح تعليمي يكون كمن يُنكر وجود الشمس في وضح النهار فتلك الجهود تستحّقُ حقًا التّنويه استنادًا إلى الحال التي كانت تعيشها الجزائر آنذاك.

وعلى كل قبل أنْ يُثني كُتّابنا ومُؤلفونا ومؤرخونا عليه وعلى أعماله المُضنية في سبيل نشر التعليم حاز فضل السبق إلى ذلك الفرنسيين أنفسهم في تلك الفترة المأزومة التي قُتلت فيها حرية الفكر والعلم يكفي أنَ عدد المدارس الحرة التي كان يشرف عليها بن باديس أصبحت تُعدَ بالعشرات تُعلّم الآلاف من التلاميذ وتنتزعهم من بين أيدي الجهل والإهمال وهو الهدف التعليمي الأسمى الذي سعى إلى تحقيقه منذ البداية حيث ألَحّ على ضرورة استقطاب وجذب الأطفال إلى المدارس بكل السبل دون التشدد في نوعية وطريقة التلقين حيث كان يُصر على السعي الأخذ بأسباب العلم وإنجازاته من أي جنس كان ومن أي وطن ينتسب إليه، وليس ببعيد طبعًا أن يكون من أزاره ووقف بجنبه على نفس الموقف والتوجه إذ صرف المشرفون على تلك المدارس نظرهم عن الخلفية الاجتماعية والتفاوت الطبقي لمرتديها على عكس المدرسة الفرنسية التي تحدثنا عن آليات العمل فيها في موضع قبل هذا فالعلاّمة بن باديس والفريق العامل معه كانوا يتصورون كل التلامذة المسجلين بمدارسهم قاعدة لمُعاودة الانطلاق من جديد لتحقيق مجتمع دون اختلالات في السلوك والأخلاق والتربية، كما نظروا إلى كل أبناء الشعب من دون استثناء على أنّهم فخر الأمة ورجائها بهم يتّم تحقق النهضة الموجودة ويُساهمون بشكل فعلي في صناعة غد أفضل للجزائر، ثم إنّه في سبيل نشر التعليم المُعتمد الأوّل في ضمان نجاح المشروع الإصلاحي ومن أجل مراعاة تنظيمه واستيفاء شروطه ركزّ على التوازن الجهوي إذ لم يتَم الاهتمام بمنطقة على حساب منطقة أخري بل نشره في المراكز الحضرية منها والنائية كما دعا كل من يهّمه أمر تأسيس الجمعيات والمدارس إلى التعريف بأنفسهم وطبيعة نشاطهم قصد إعانتهم علي ذلك بالتوجيه والإرشاد إذ جاء في أحد أعداد جريدة البصائر سنة ١٩٣٦م الأتي:" إنّنا ندعو كل جماعة يُريدون تأسيس جمعية وفتح مدرسة لتعليم الإسلام والعربية أن يُكاتبونا ويُعرفونا لنرشدهم إلي الوجوه القانونية اللازمة".[٢٦]

بالإضافة إلى كل هذا عمل على تجنيد المتخرجين من معاهد وجوامع الدول الشقيقة وبالخصوص جامع الزيتونة لتحقيق الأهداف والغايات في تمكين أبناء الشعب من التكّيف مع التجديدات المعرفية وتحصينهم لمُواجهة لتغيرات الثقافية والموجة التغريبية الفرنسية وإذكاء روح النّضال في أوساطهم لتحرير البلاد وفي اعتقادنا أنّ النّجاح الذي استطاع تحقيقه مرّده أنّ الإصلاح الذي نادي به كان نابعًا من داخل المجتمع الجزائري ومُستقّلا عن أيّة ضغوط أو إيحاءات خارجية وهو ما يُسميه فقيه الحضارة المفكر مالك بن نبي الأصالة الفكرية حيث يقول أنّه من الخطاء إقتباس حلول لأي مجتمع من المجتمعات وهو يختلف عنها في العمر والأهداف والاتجاهات[٢٧] وقد كان اللُب المثمر لهذه الجهود قطع ضلالة الجهل عن الشعب الجزائري وإحداث العشرات من المراكز للتعليم المكتبي الخاص بالصغار ولم تمضي فترة طويلة حتى أصبحت عامرة بالأطفال يدرسون مبادئ لغتهم وآدابها وأصول دينهم بعدما كانوا يعانون التّشرُد والضيّاع لعدم تمّكنهم من الالتحاق بالمدرسة الفرنسية وقد كان يتم على مستواها رعايتهم وصقل مواهبهم ليكونوا مُتصلين بالمجتمع ومُلتحمين التحامًا قوّيًا بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم وقد كانت مُدة الدراسة فيها تمتد لستة سنوات يتّم فيها الانتقال من مستوى إلى أخر بعد إجراء امتحانات

الانتقاء ما يجعلها إلى حد بعيد شبيهة بالمدارس الحديثة، والجدير بالذكر أنّها كانت تجمع بين الذكور والإناث على إثر تجاوز الآباء للعقلية المتحجرة وتخليهم عن الذهنية المتخلفة التي كانت سببًا في منعهن بناتهم من الالتحاق بالمدرسة ومتابعة التعليم وازدادت بعد ذلك أعدادهن سنة بعد سنة ووصل إلى الثلث من المجموع الكلي مطلع الخمسينات ومنهن من أظهرن التفوق كما أنّ عدد الناجحات في الامتحانات أكبر من عدد الذكور الناجحين في بعض المؤسسات إذ نجد في مذكرات محمد خير الدين أحد الأعضاء القاعديين للجمعية قوائم للناجحين في امتحان شهادة الدراسة الابتدائية العربية بالمدارس الحرة ومراكزها الثمانية المتواجدة بكل من العاصمة، قسنطينة، وهران، تلمسان، باتنة، الأغواط، سطيف، تبسة، نلاحظ بشكل جلي في بعض هذه المراكز أنّ نسبة نجاح الفتيات أكبر من نسبة نجاح الذكور.[٢٨]

أما بالنسبة للشابات والنساء اللائي تجاوزن سن التمدرس كان ابن باديس يقدم لهن دروسًا ومواعظ دينية يتعلمن من خلالها الآداب وقواعد التربية الإسلامية ويتم تذكيرهن بنساء السلف اللائي عرفن في مجتمعاتهن الإسلامية بالباع الطويل في الأدب والعلم والبذل لخدمة الدين فمع أنّهن لم يقطعن شوطًا كبيرًا في التعليم وكان زادهن من المعرفة والثقافة قليل جدًا إلا أنّه على الأقل أصبحن يُولين اهتمامًا بالغًا بالعلم والتعليم حيث أصبح طلب العلم ماثلٌ في سلوكهن بتشجيع أبنائهن على تحصيل ما تيسر من العلوم حتى يتمكنوا من الصمود أمام مخططات الإدارة الاستعمارية الساعية إلى طمس هويتهم العربية الإسلامية فقد كانت الأمهات الجزائريات يوقظن أبنائهن عند موعد صلاة الفجر ليدرسوا بعدها العربية والقرآن الكريم حتى إذا جاء وقت الذهاب إلى المدارس التي كانت فرنسية المنزع ذهبوا إليها، وهذا كله بعد أن كانت الأنثى بالجزائر ضحية لأنوثتها حيث كان لا يُسمع لها حسٌ وتعاني كل ألوان الظلم وتُمنع من كل أبسط حقوقها كان جراء الاستجابة لتقاليد راكدة متوارثة كبلتها بسلاسل من حديد حتى أصبح حالها شبيهٌ بحال المرأة الأوروبية في القرون الوسطى لا قيمة لها ولا وزن وظيفتها تتوقف على الإنجاب والعمل المنزلي وهي الحال التي جعلتها محجوبة عن كل ما يستجديه الوجود الإنساني من تطور، تغلب عليها السذاجة والأمية المطلقة وصلت فيها إلى عجزها عن الحساب من الواحد إلى ما فوق العشرة وأنّها لا تعرف كيف تؤرخ تواريخ الحوادث إلا بعام الطاعون أو المجاعة أو عام انتقالها من كذا إلى كذا ونحو ذلك من الأحداث التي تبقى معلقة في أذهانهن، وزيادة على كل الذي ذكرناه فقد كان للجهود المُضنية التي قام بها بن باديس طوال فترة نشاطه الإصلاحي انعكاسات في دفع عملية التعليم العربي بالجزائر فإليه يرجع الفضل في تكوين النُخبة المُفكّرة من المُعرّبين واليها يرجع الفضل في إعادة الاعتبار إلى اللغة العربية.[٢٩]

ولعله ليس أمرًا مبالغًا فيه القول أنّ من يعرف اللغة العربية في الجزائر آنذاك وحتى بعد عهد قريب من الاستقلال مدين للعمل الضّخم الذي قام به مع من عمل بجنبه في إحداث الثورة التعليمية فيها لأنّ هؤلاء حقا كانوا عُنوانا للمقاومة الثقافية بمُجابهتهم المشروع الاستعماري الذي كان يقتضي فرنسة اللّسان إذْ أكّدوا أنّهم أصحاب مشروع رغم قلّة الإمكانيات ومحدُوديتها لذا لا يجب التغاضي ونسيان المكاسب الهامة التي حققوها للمجتمع فيما يخُص إعادة نشر اللغة العربية ومُحاولة تعميمها لتترقي إلى مكانتها التي كانت عليها ولتكون اللسان الذي ينطق به الجزائريون بعد أنْ أصبح مُشّبعا بالمُفردات الفرنسية، فالعمل الذي قام به في نُصرة لغة الضاد لا يجب قصر النظر إليه فقط من زاوية ما يظهر للعيان من تحفيظ للقرآن وتدريس أحكام الفقه والنّحو والصرف في تلك الحقبة من الزمن لأنّ الرهان الذي حاول كسبه هو تهيئة أجيال جديدة تستوعب مشروعه وتنسجم معه لتتمكّن من احتضان لغتها الأصلية وتُدافع عنها وتنشأ تنشئة تقوم على غرس العروبة في نفوسها وهذا ما حدث بالفعل حيث صلح ما فسد من لسان الجزائريين بعد سنوات من العمل المُتواصل الذي اتخذ أشكالا وصُورا عدة واستقامت ألسنة النشء وصّحت اللهجات وبدأت ملكة الخطابة تنطبع في بعضهم وكذلك في الشباب الذي تكوّن في المدارس الحرة التي بُنيت بأموال الشعب حيث أصبحوا على الرغم من قلّتهم ذوي ألسنة سيّالة ومُحاضرون بلغوا الغاية فصاحة ونصاعة لفظ وتفّننا في المواضيع وملكاتها ومتانة إلقاء[٣٠].

خَاتمَةٌ

استنادًا إلى كل ما تمت الإشارة إليه لا يُمكن بأي حال من الأحوال إنكار وجحود المكاسب التي استطاع العلاّمة ابن باديس تحقيقها في الجانب التعليمي الذي كان يقتضي تحرير الإنسان الجزائري من نقيصة الجهل والتقليد، وكذلك إصلاح عطل القوى الدافعة التي تُمكّنه من النهوض حتى يتسنى له في الأخير إقرار التغيير على الشكل الذي أراده وخطط له، وهذا كله في زمن كانت الآلة الاستخرابية الفرنسية تعمل بأعلى الوتائر لمحاصرة وقهر كل مُصلحٌ أو مُعارضٌ قبل أنْ يتجاوز صوتُه الهمس أو يُصبح ذو شأن ومحطّ الأنظار، أو قائدا مُحتملا للتغيير حيث تسارع فورًا إلى تبنيه وإقبار أفكاره ومشاريعه لتذهب أدراج الرياح قبل أنْ تستوي على سوقها وتُؤتي أكلها، لذلك لاشك أنّ هذا المُصلح أخلص بصورة مطلقة في بذل جهود جبّارة في ميدان التعليم والتربية والتهذيب لدرجة تجعل كل من يقف على حقيقة تلك الجهود الفيّاضة يشعر بكثير من الاعتزاز عندما يجده قد أفنى وقته وصحته وقدّم كل ما امتلكه ليتعلم أبناء الجزائر ولتُرفع صروح العلم في البلاد لكي تحفظ تراثها المُمتد إلي دُهور كثيرة من الزّمن وتصُون ثوابت الشعب التي حاول الاستعمار لما يزيد عن قرن وربع من الزمن بترها واستئصالها من الجُذور.

الاحالات المرجعية:

(١) طالبي عمار، **آثار ابن باديس**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط٣،١٩٩٧م، ص٧٤.
(٢) شترة خير الدّين، **"الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة (١٩١٩م ــ ١٩٣٩م)"**، الجزائر، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد ٢٠، ٢٠٠٦م، ص٢٠٧.
(٣) الخطيب أحمد، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥م، ص ١٢٩.
(٤) بوعزيز يحي، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٥م، ص ٤٨.
(5) Yvonne Turin, **Affrontement culturelle dans l'Algérie coloniale**, Paris, François Maspero, 1971,P 119 .
(٦) الجندي أنور، **العالم الإسلامي والاستعمار الثقافي السياسي والاجتماعي**، القاهرة، الدار القومية العربية، ١٩٨٥م، ص ٢٤٣.
(٧) هلال عمار، **أراء وأبحاث في تاريخ الجزائر المعاصر (١٨٣٠-١٩٦٢)م**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٥م، ص ١١٠.
(٨) بوعزيز يحي، مرجع سبق ذكره، ص ٤٩.
(٩) هلال عمار، مرجع سبق ذكره، ص ١٤١.
(١٠) الورتيلاني الفوضيل، **الجزائر الثائرة**، الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر، ١٩٩٢م، ص ٢٠٢.
(١١) بن نبي مالك، **القضايا الكبرى**، لبنان، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩١م. ص ١٤٠.
(١٢) عباس فرحات، **ليل الاستعمار**، ترجمة: أبو بكر رحال، الجزائر، ANEP،٢٠٠٥م، ص ٢٨.
(١٣) المدني أحمد توفيق، **حياة كفاح**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج٣، ١٩٨١م، ص٤٨٥.
(١٤) الإبراهيمي محمد البشير، **أثار الشيخ البشير الإبراهيمي**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع ج١، ط١، ١٩٧٨م، ص١٤٣.
(١٥) محمد خير الدين، **مذكرات محمد خير الدين**، الجزائر، مطبعة دحلب، ج١، ١٩٨٥م، ص٨٣.
(١٦) شيبان عبد الرحمان، **مقدمة مجلة الشهاب**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٨٣.
(١٧) الساحلي محمد العزيز، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال فكر زعماء الإصلاح**، بيروت، كومبيوتايب، ١٩٩٥م، ص ١٣٩.
(١٨) تركي رابح، **التعليم القومي والشخصية الوطنية**، الجزائر، ش و ن ت، ط٢،١٩٧٦م، ص ١٣٥.
(١٩) الخطيب أحمد، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٠.
(٢٠) علي مغربي، **"سرّ عظمة ابن باديس"**، مجلة الرسالة، الجزائر، وزارة الشؤون الدينية، العدد ١٩٨٠،١م، ص٣٨.
(٢١) ابن باديس عبد الحميد، **آثار عبد الحميد ابن باديس**، الجزائر، وزارة الشؤون الدينية، ط١، ١٩٨٤م، ص ٥٤.
(٢٢) الإبراهيمي محمد البشير، مرجع سبق ذكره، ج٢، ص ٢٣٥.
(٢٣) نفس المرجع، ج١، ص ١٤٤.
(٢٤) نفس المرجع، ص ١٤٦.
(٢٥) شارل روبير آجرون، **تاريخ الجزائر المعاصر**، ترجمة: عيسى عصفور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط٢، ١٩٨٢م، ص ٥٨٢.
(٢٦) ابن باديس عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ج٤، ص ١٢٩.
(٢٧) بن نبي مالك، **مشكلة الثقافة**، لبنان، دار الفكر المعاصر، ط٤، ١٩٨٤م، ص٣٧.
(٢٨) محمد خير الدين، مرجع سبق ذكره، ج١، ص٥٩.
(٢٩) سلامة عبد الرحمان، **التعريب في الجزائر ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً**، دمشق، وزارة الإرشاد، ١٩٧٦م، ص ١٥.
(٣٠) الإبراهيمي محمد البشير، مرجع سبق ذكره، ج١، ص ١٢٩.